القرآن الكريم وترجمته الى اللغات الاجنبية

بقلم الأستاذ محمد صالح البنداق
عضو مجلة دراسات الأديان العالمية
بأوكسفورد

صدرت الطبعة الجديدة الممتازة ترجمة للقرآن الكريم الى اللغة الفرنسية في امارة موناكو ، وهي الترجمة التي وضعها منذ ما يزيد على المئة عام المستشرق كازيمرسكي وأشرف على طبع هذه الترجمة جنبا الى جنب مع النص العربي للقرآن المجيد الحاج نور الدين بن محمد المدير المعاون الاسبق للمعهد الاسلامي التابع لمسجد باريس . وبهذه المناسبة فقد طلبت دار « هواة الكتاب » في بيروت الى صديقنا الاستاذ محمد صالح البنداق وضع بحث عن ترجمة القرآن نثبت ترجمته فيما يلي :

لقد اعد هذا المقال للغرباء عن اللغة العربية ، وبما انه كتب بالفرنسية فقد اتت صياغته في الاساس لغير المسلمين بحيث تحدث عن تعريف القرآن ثم عن ترجمته الى اللغات الاجنبية ثم درس الترجمة الصادرة مؤخرا للعلامة كازيمرسكي .

فما هو القرآن الكريم ؟ القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . انه الكتاب الذي اوحي به الى النبي العربي الامي محمد بن عبد الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بواسطة الملاك جبريل ناقل الوحي ومبلغه .

والقرآن الكريم في نصه وحرفيته في رعاية الله باللوح المحفوظ . والايمان بالقرآن ، بالنسبة للمسلم ، امر اساسي . فعلى المسلم ان يؤمن بالقرآن وبالنبي . ويقول المستشرق ما سيبنون « اذا كانت العقيدة المسيحية في اساسها تلزم معتنقها بالايمان بعيسى ابن مريم والسير في خطاه قبل الايمان بالكتاب الذي أتى به ، فان الاسلام يلزم معتنقه بالايمان بالقرآن ثم السير في خطى النبي اي اتباع القرآن الكريم ثم العمل بالسنة الشريفة » .

والرسالة الآلهية التي احتواها القرآن الكريم قد اوحى بها الى نبي امي . وقد حاول كثير من المستشرقين الذين تتبعوا تاريخ حياة النبي في جميع تفاصيلها

التنكر لهذه « الامية » كيما يثبتوا ان القرآن مـــن وضع النبي ، ولكـــن اشد المشاكسين منهم لم يتمكنوا من ذلك ووقفوا مرغمين مشدوهين امام عظمة نبـــي امي اتى برسالة آلهية ليس لـــه فيهـــا اي حرف « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » • ان اول واعظم صفات النبي تكمن في « اميته » وهو الذي لـــم يقرأ الا باذن الله « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقـــرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » •

ولقد استمر نزول الوحي الآلهي على قلب النبي نحو عشرين عاما من السنة ستمئة واثني عشرة الى ستمئة واثنين وثلاثين للميلاد • وكانت الآيات تنزل وفقا للظروف والاحوال وقد حفظها عن ظهر قلب أصحاب النبي وقبلهم النبي ذاته عليه السلام ـــ لقد كان الصحابة والحفظة يكتبون الآيات ، على الرغم مـــن قلة عـــدد المتعلمين في ذاك الحين ـــ على عظام الجمل وسعف النخل وقطع الجلود • ومـــع مرور الزمن ، وبسبب وفاة الحفظة على أثر المعارك التي خاضها المسلمون في سبيل اعلاء كلمة الاله وتعميم الدعوة الاسلامية ، وخوفا علـــى النصوص القرآنية مـــن فقدها بفقدان حفظتها الذين تعاقبوا بعد انتقال النبي الى الملأ الاعلى ، فقد جمـــع الخليفة الثالث عثمان الذي تولى الخلافة منذ سنـــة ستمئة واربع واربعين الـــى ستمئة وست وخمسين ـــ جمع هذه القطع وعقـــد مجلسا ضم الصحابة الحفظة الاحياء في شبه مجمع اكاديمي بلغة اليوم ـــ وكان عثمان بذاته من الحفظة ـــ وتبين له ان ما جمع من النصوص كان مطابقا لما حفظ في الصدور وحقـــق بالآيـــات وورودها في اماكنها التي حددها لها النبي ـــ صلى اللـــه عليه وسلم ـــ وبتسلسل السور القرآنية ثم استنساخ الخليفة اربع نسخ مماثلة واتلف كافة القطع المكتوبة غيرها واصبحت هذه النسخ بالاجماع هي القرآن الكريم الذي ارسلت نسخه الى جميع انحاء الامبراطورية الاسلامية في ذلك الزمان وقد اطلق عليها اسم التعريف « مصحف عثمان » •

ومنذ ئذ فان نسخ القرآن الكريم المحفوظة حتى زمننا الحاضر هـــي مماثلة لمصحف عثمان نسخة طبق الاصل في التعبير العادي ـــ ومنذ اكتشاف الطباعة فان النسخ التي طبعت منذ اربعمئة عام حتى آخر نسخة اخرجت من مطابع بيروت عام ١٩٧٠ كلها (طبق الاصل) عن نسخة عثمان التي يزيد عمرها على ثلاثة عشر قرنا•

ومهما كان نوع الخط الذي كتب به القرآن نسخي ، او ثلث ، او كوفي ، او ريحاني ، او رقعة او غيرها ، ومهما كان البلد الذي خط فيه القرآن فان النص هو ذاته لا يختلف بآية او كلمة او حرف عن مصحف عثمان . ولقد اطلعت على مخطوط قرآني فريد من نوعه كان لاحد سلاطين المماليك (قيتباي) وطالعته مليا كما اني اطلعت على نسخ من المصاحف الشريفة المخطوطة ، والمحفوظة في مكتبات لندن ودابلن والقاهرة ، ودمشق ولم اجد فيها اي فارق بالآية او الكلمة او الحرف عن النسخة الاولى ولا بينها وبين أحدث نسخ طبعت في الشرق او الغرب في الحقبة الاخيرة .

هذا وقد قام المعهد الاسلامي في ميونيخ ــ قبل الحرب العظمى الاخيرة ــ بجمع اكبر عدد ممكن ، ومن جميع بلدان العالم ، من صور المصاحف الشريفة وأشرف كبار المستشرقين على مقارنتها وهي ترقى الى تواريخ قديمة ومختلفة فما وجدوا فيها اختلافا ولا تحريفا . وقد اتلف هذا المعهد مع الاسف في الحرب الاخيرة وذهب ما فيه من كنوز .

ومن اجل التأكد من حفظ النبي لكلام الله كان جبريل يستمع الى تلاوة القرآن من النبي كل سنة في شهر رمضان . وفي السنة الاخيرة من حياة النبي قرأ القرآن مرتين على جبريل وكانت آخر تلاوة بحضور الصحابي زيد بن ثابت الذي كتب النصوص واعاد تلاوتها على النبي وكان يعلمها للمسلمين .

ومن المهم جدا ان نشير هنا الى ان النبي قد منع كتبة القرآن من كتابة غيره . ان لهذا الواقع اهمية كبرى ومغزى عميقا يدل على حكمة بالغة . ومن الكتبة نذكر ابا بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وابان ابن سعيد وخالد ابن الوليد وابي بن كعب وزيد بن ثابت المشار اليه آنفا وثابت بن عيسى وقد ذكر المستشرق الفرنسي راجيس بلاشير نحو اربعين عدا اصبحوا من الشخصيات الاسلامية البارزة كخلفاء وولاة وقادة عسكريين ولعبوا دورا فعالا في ارساء قواعد الاسلام والحضارة الاسلامية .

النص القرآني

يشمل القرآن الكريم على ثلاثين جزءا تشكل ١١٤ سورة متسلسلة وفق طولها الا سورة الفاتحة التي تتألف من سبع آيات ــ انها فاتحة القرآن ــ وان

الحفظة يعرفون ان كتاب الله يتألف من ٦٢٣٦ آية عدد كلماتها ٧٧٤٣٩ •

والنص القرآني ليس كما ورد في تسلسل نزول آياته ذلك بأن الآيات قد وضعت كل منها في المكان الذي حدده النبي عملا بالوحي واشارة جبريل • ان النص هو وقفي وكل محاولة لاعادة تصنيف الآيات وابراز القرآن وفق تسلسل الآيات حين نزولها تكون ضد التعاليم الاسلامية وتغير احكام ونسق التلاوة • لذلك كان هذا الموضوع محرما على المسلم • ولكنه بالرغم من ذلك فقد جرت في نهاية القرن الماضي محاولة بهذا الشأن قامت بها شخصية ايرانية مسلمة اعادت تنظيم الآيات كما اوحي بها ومن الطبيعي ان المحاولة لم تلق اية استجابة في الاوساط الاسلامية وقد منعها الازهر واصدر بيانا حذر فيه من نشرها لمناقضتها التعاليم الاسلامية والوقفية التي حققها الرسول عليه السلام تنفيذا لارادة الله • وعلى الرغم من ان لاعادة التصنيف هذه فائدة علمية وتاريخية الا انها تعود الى الاخصائيين في التاريخ وليس الى جمهرة المسلمين المؤمنين •

وعلى ان هذا التحريم لم يمنع المستشرق الانجليزي رادول ان يشرع بأول محاولة لترجمة القرآن وفقا لتسلسل نزول الآيات وكان ذلك عام ١٨٦١ • ولقد كان مقتنعا بان هذا العمل لم يكن موجها الى المثقف المسلم بل الى القارىء الغربي الرفيع الثقافة والاختصاصي والمهتم باتباع نزول الوحي يوما فيوما وفق التسلسل التاريخي •

اما محتوى القرآن ، ذلك الكتاب الذي هو فوق كافة البشر ، « ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه ، هدى للمتقين » • ذلك الكتاب الذي اقسم به رب العزة قائلا « وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم في كتاب » والله لو (اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) احتوى على العلوم والفلسفة والاخلاق والتصوف وعلم النفس والآداب والتاريخ وغيرها كثير لمن اراد تفصيلا ، بحيث يجد فيه الناس جوابا على كل مطلب في كل زمان ومكان « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » والشك بذلك شك بصلب العقيدة الاسلامية وعليه ، فان القرآن بما احتواه يشكل اساس الحضارة الاسلامية •

حول ترجمة القرآن الكريم :

يقال احيانا ان ترجمة القرآن حرام ، انما الواقع ان من صلب تعاليم القرآن

تعميم رسالة الاسلام التي نطق بها • الحقيقة هي ان القرآن تستحيل ترجمته بحد ذاتها فاللغات الاجنبية مهما كانت غنية بمفرداتها لا يمكن ان تعطي المعنى الصحيح للآيات الكريمة ناهيك بعذوبة نطقها وموسيقاتها • ولقد عبر عن ذلك على اكمل وجه احد المستشرقين بالذات وهو البروفسور ج• وليامس من اساتذة معهد الدراسات الاسلامية في جامعة ماكغيل حيث قال في كتابه الذي صدر مؤخرا في سويسرا :

« اوحي القرآن باللغة العربية والمسلمون مؤمنون بانه كتاب آلهي ولا يمكن نقله الى غير لغتهم • والواقع ان كل من يقرأ القرآن يرى ان موقف المسلمين على حق فما من ترجمة مهما كانت امينة ودقيقة يمكن ان تعتبر صحيحة • ان اللغة العربية لغة غنية بمفرداتها وصورها وتورياتها ولغة القرآن رفيعة عظيمة ناعمة وقوية ما زالت منذ الف واربعمئة عام تدخل اعماق النفوس وتحفز المشاعر • ومهما حاولنا وصف القرآن بالعظمة والجمال والرفعة فان اوصافنا تكون اقل مما يجب ان تكون » • « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » و « قل هو للذين آمنوا شفاء » •

فبسبب استحالة ترجمة القرآن الى لغة اجنبية تقف الجهود عند حد تفسير الآيات • وقد تنبه الى هذا الواقع الاستاذ آربري فنشر « القرآن المفسر » بدلا من « ترجمة القرآن » في مطابع اوكسفورد • وفي سنة ١٩٣٦ نشر الازهر بلاغا جاء فيه انه من الانسب ترجمة معاني الآيات ليقف الاجانب على محتوى القرآن وشكل لهذه الغاية لجنة من العلماء تستقي من مصادر اشهر المفسرين عملها في الترجمة • وبالرغم من أن هذه الفكرة بدت عملية ومنطقية الا انها اثارت جدلا وانقسم المفكرون فريقين احدهما ، ويمثله الاستاذ محمد فريد وجدي ، كان يرى وجوب ترجمة القرآن لان الاجانب يفضلون قراءته بلغاتهم كما هو دون اي تفسير او شرح ، والآخر يساند الازهر وينادي بترجمة معاني الآيات •

ومهما يكن من شأن موقف العلماء فالحاجة الى التعريف على القرآن شقت طريقها في الغرب وبدأت الترجمات تترى منذ القرن الثاني عشر للميلاد وما تزال مستمرة حتى اليوم • فقد ترجم العلماء والمفكرون القرآن الكريم الى السريانية والتركية والفارسية والبنغالية والارمنية والصينية والجافانية واليابانية والسواحيلية

وغيرها من اللغات الشرقية والى الفرنسية والانجليزية والسويدية ، والهولاندية والدانمركية والبلغارية والبولونية والمجرية واللاتينية والفرنسية واليونانية وغيرها من اللغات الغربية • وقد حدث ان ترجم القرآن الى اللغة الواحدة عدة مرات حتى انه كانت هنالك محاولة لترجمته ترجمة شعرية •

ومن اقدم الترجمات المعروفة والمحفوظة بكل عناية ودراية في المكتبات العالمية نذكر الترجمة اللاتينية عام ١١٤٣ التي نشرت عام ١٥٤٣ في بال بسويسرا على يد تيودور بوخمان (بيبلياندير) ، والترجمة الفرنسية عام ١٦٩٧ ، والالمانية عام ١٦١٦ والروسية عام ١٧٧٦ والايطالية عام ١٥٧٧ والانجليزية عام ١٧٣٤ والفارسية عام ١٨٢١ والتركية عام ١٩١٣ والخ •••

وفيما يتعلق خاصة بالترجمات الفرنسية فان اكبر مفاجأة منها كانت ترجمة سافاري في القرن الثامن عشر التي نشرت في باريس عام ١٧٨٣ • فبعد ان انهى سافاري الدراسات الشرقية في فرنسا سافر الى مصر عام ١٧٧٤ وعاش فيها خمس سنوات مختلطا بالمجتمع المصري حيث اجتمع الى علماء الازهر ودرس القرآن الكريم تحت اشرافهم متعمقا متفهما ما استطاع الى ذلك سبيلا • وفي ذلك الجو الفكري والروحي ترجم سافاري القرآن محاولا تقديم نص موسيقي كالذي كان يسمعه من القراء •

على ان المفاجأة الكبرى بترجمة القرآن الكريم الى اللغة الفرنسية كانت في القرن التاسع عشر وقد تلقتها الاوساط الفكرية الفرنسية بدهشة واعجاب ، تلك هي ترجمة كازيمرسكي البولوني الاصل •

من كان كازيمرسكي ؟

ان البرت دوبيبرستاين كازيمرسكي (١٨٠٨ ــ ١٨٨٧) مستشرق بولوني شهير هاجر مع فريق كبير من زملائه اهل الفكر الى الغرب احتجاجا على تجزئة بولونيا في القرن التاسع عشر وفقدانها الاستقلال • وقد اسهم في الثورة عام ١٨٣١ وهاجر الى باريس حيث اتخذ من فرنسا موطنا ثانيا وسافر الى الشرق عام ١٨٣٩ وعكف من ١٨٤٠ الى ١٨٤٧ على وضع قاموسه الشهير بالعربية والفرنسية مع جذور الكلمات ومشتقاتها في اللهجة العامية وفي البلاغة بما فيها لهجات الجزائر ومراكش • وقد نشرت الطبعة الثانية من هذا القاموس عام ١٨٦٠ في

مجلدين ثم اعيد نشره في بولاق بمصر عام ١٨٧٥ واظن ان في دار الكتب اللبنانية نسخة منه . وله مؤلفات اخرى عديدة وترجمات منها ترجمة امثال لقمان الحكيم وقد بقي له كثير من المؤلفات المخطوطة في مكتبة كورنيك . ومهما كانت مؤلفاته عديدة فان شهرته كانت من ترجمته للقرآن الكريم ولقاموسه المذكور .

ترجمة كازيمرسكي للقرآن الكريم :

صدرت اول ترجمة للقرآن الكريم بالفرنسية على يد المستشرق كازيمرسكي في باريس عام ١٨٤٠ . ومنذ ذلك التاريخ ظهر الى الوجود عدة طبعات من هذه الترجمة وما تزال تصدر هي بذاتها حتى يومنا هذا . وآخر طبعة كانت هذه السنة في امارة موناكو وقد نشرت بالعربية والفرنسية في مجلد واحد انيق .

فالى ماذا تعزي اهمية هذه الترجمة ولماذا ظلت معتمدة يهتم الناشرون باستثمارها بالرغم من مضي اكثر من قرن على صدورها . الواقع انها ترجمة رصينة حاول واضعها ان يقدم للقارىء الغربي نصا يكون اقرب شيء للاصل العربي وكان رائده تقديم الآيات الكريمة دون تأويل او تزويق لذلك كانت ترجمته ، من حيث انتقاء الكلمات والمرادفات افضل ما امكن وبدت اقل « موسيقية » من ترجمة سافاري في القرن الاسبق . وهذه الدقة في تحري المرادفات دون الانهماك برناتها هي التي ضمنت لترجمته الاستمرار واهتمام المستشرقين والمفكرين بها . ففي هذا المجال نرى ان ترجمة كازيمرسكي نافست على ترجمة سافاري ــ وأتت ترجمة تبين احترام صاحبها لاسلوب القرآن وروح النص بحيث يشعر قارئها بنشوة روحية لدى مطالعتها . وقد اضطر كازيمرسكي الى شرح بعض الآيات في الهوامش ولذلك فقد لجأ الى اصدق المراجع الاسلامية لهذه الغاية .

ومن مظاهر اهمية ترجمته كون المستشرق جول لابوم قد لجأ اليها عندما وضع مؤلفه عن تصنيف آيات القرآن بالنسبة لمواضيعها .

وفي النهاية أشير الى ان المستشرق الايطالي كارلو نللينو قد قدر وفضل ترجمة كازيمرسكي على غيرها من الترجمات الفرنسية وخاصة ترجمة سافاري . ونللينو المذكور شخصية معروفة في الاوساط العالمية الدولية وخاصة في مصر حيث كان استاذا في جامعة القاهرة ومن تلاميذه عميد الادب العربي الدكتور طه حسين الذي قد يكون مرشحا لجائزة نوبل العالمية .